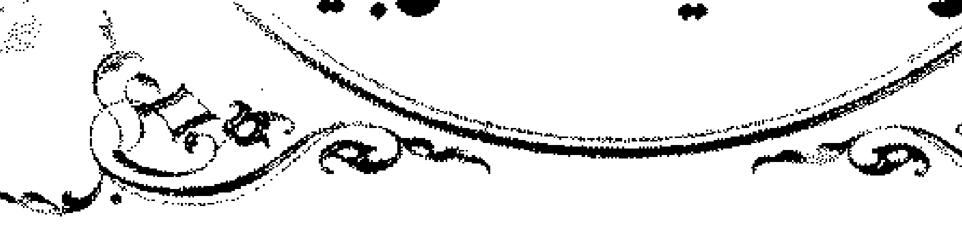
فى
التنوير الإسلامى
«٨»



التعددية

الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية



تأليف
د. محمد عمارة



فى التنوير الإسلامى 



التعددية

الرؤية الإسلامية.. والتحديات الغربية

تأليف

د. محمد عمارة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم السلسلة : فى التنوير الإسلامى.
اسم الكتاب : التعددية الرؤية الإسلامية .. والتحديات الغربية
تأليف : دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر : اكتوبر ١٩٩٧.
رقم الإيداع : ٣٧٧١/ ١٩٩٧ .
الترقيم الدولى : I . S . B . N 977 - 14 - 0595 -0
الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة السادس من أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع : ١٨ ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة .
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس : ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ادارة النشر : ٢١ ش أحمد عرابى – المهندسين – القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ فاكس : ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

«التعددية» : تنوع ، مؤسس على «تميز . . وخصوصية» . . ولذلك ، فهى لا يمكن أن توجد وتتأتى - بل ولا حتى تُتصوَّر - إلا فى مقابلة - وبالمقارنة - مع «الوحدة . . والجامع» . . ولذلك ؛ لايمكن إطلاقها على «التشرذم» و «القطيعة» التى لا جامع لآحادهما ، ولا على «التمزق» الذى انعدمت العلاقة بين وحداته . . وأيضا لا يمكن إطلاق «التعددية» على «الواحدية» التى لا أجزاء لها ، أو المقهورة أجزاؤها على التخلى عن «المميزات . . والخصوصيات» ـ على الأقل عندما يكون الحكم على عالم «الفعل» لا على عالم «الإمكان» و «القوة» . .

فأفراد العائلة : تعدد فى إطار العائلة ، وفى مقابلتها . . والذكر والأنثى : تعدد فى إطار وحدة النفس الإنسانية . . والشعوب والقبائل : تعدد فى جنس الإنسان . .

فبدون الوحدة الجامعة لا يتصور تنوع وخصوصية وتميز ، ومن ثم تعددية . . والعكس صحيح . .

والتعددية مستويات ، يحددها «الجامع . . والرابط» الذى يجمع ويوحد ويظلل وحداتها وأفرادها . . فعلى المستوى العالمى ، مثلا هناك تعددية الحضارات المتميزة ، والقوميات المختلفة ، المؤسسة على تعدد فى الشرائع والمناهج والفلسفات واللغات والثقافات ، وبينها جميعا جامع الاشتراك فى الإنسانى الذى لا تمايز فيه ولا اختلاف . .

وعلى مستوى كل حضارة من الحضارات ، هناك تعددية فى المذاهب ومدارس الفكر وفلسفاتها ، وتيارات السياسة وتنظيماتها ، وقد تكون فى بعض الحضارات تعددية فى القوميات واللغات والأوطان . . تتمايز وحدات التعددية فى الخصوصيات المتعددة ، مع اجتماعها كلها فى رابط الحضارة الواحدة وجامعها . .

والتعددية ، ككل الظواهر والمذاهب الفكرية ، لها «وسط ـ عدل ـ متوازن» ، ولها طرفا «غلو» أحدهما «إفراط» والآخر «تفريط»! . . و«وسطها ـ العدل ـ المتوازن» هو الذى يراعى العلاقة بين «التميز . . والتنوع . . والتعدد» وبين «الجامع . . والرابط . . والوحدة» . . بينما يمثل التشرذم «غلو القطيعة والتنافر» الذى لا جامع له . . كما تمثل «الوحدة» ، المنكرة للخصوصية ، «غلو القهر» المانع من تميز الفرقاء واختصاصها ! . .

وإذا كانت الرؤية الإسلامية قد قصرت «الوحدة» ، التى لا تركب فيها ولا تعدد لها على الذات الإلهية وحدها ، دون كل المخلوقات والمحدثات والموجودات ، فى كل ميادين الخلق المادية والحيوانية والإنسانية والفكرية ، تلك التى قامت جميعها على التعدد والتزاوج والتركب والارتفاق . . فإن هذه الرؤية الإسلامية تكون ، بهذا الموقف الثابت ـ ثبات الاعتقاد الدينى ـ بل جوهر هذا الاعتقاد ـ قد جعلت من التعددية ، فى كل الظواهر المخلوقة ، «سنة» من سنن الله – سبحانه وتعالى – ، فى الخلق والمخلوقات جميعا ، و «آية» من الآيات التى لاتبديل لها ولا تحويل . .

إنها «القانون» الإلهى ، و «السنة» الإلهية ـ الأزلية الأبدية ـ فى ميادين الكون المادى ، والاجتماع الإنسانى ، وشئون العمران وميادينه . . وبها تتميز وتختص «الوحدانية» فى ذات «الحق» . .

كما تتميز وتختص «التعددية» بكل ظواهر «الخلق» ! . .

وإذا كانت «الوسطية الجامعة» في الرؤية الإسلامي ، هي خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية ، والمنهاج الإسلامي . . يشهد عليها القرآن الكريم ، المنبئ عن «جعل» الله- سبحانه وتعالى ، هذه الأمة أمة وسطا ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] . . وهي وسيطة العدل ، أي التوازن ، الذي لا يقوم إلا بجمع عناصر الحق والصواب من طرفي غلو الإفراط والتفريط ، وتمييزها موقفا ثالثا وسطا ومستقلا . . وذلك على النحو الذي حدده الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه الرسول- ﷺ- : «الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا» . [2] . .

إذا كان هذا هو معنى الوسطية الإسلامية ، فإن التعددية ، الموزونة بميزانها ، لابد أن تكون تَميزًا لفرقاء يجمعهم جامع الإسلام ، وتنوعا لمذاهب وتيارات تظللها مرجعية التصور الإسلامي الجامع ، وخصوصيات متعددة في إطار ثوابت الوحدة الإسلامية ، الأمر الذي يجعل هذه التعددية : نموا . . وتنمية للخصوصيات ، مع احتفاظ كل فرقائها ، وأطراف الخصوصيات ، وأفراد التنوع بالروح الإسلامية ، والمزاج الإسلامي ، وتواصل الفروع مع أصل الشجرة الطيبة لكلمة الإسلام ، التي هي بلاغ الله إلى رسوله- ﷺ - وبيان هذا الرسول إلى العالمين !

بهذا المنظار والمنهاج يكون طريق النظر الإسلامي إلى قضية التعددية . . فيراها قانون التنوع الإسلامي في إطار الوحدة الإسلامية . .

* * *

كل ما عدا الذات الإلهية ـ «الحق . . واجب الوجود» . . من سائر أصناف «الخلق . . الموجودات» - وكذلك سائر ميادين العمران البشرى ، والفكر الإنسانى . . قائم على الازدواج ، والتعدد ، والتركب ، والارتفاق . . سنة من سنن الله- سبحانه وتعالى- ، وآية من آياته فى الخلق ، لا تبديل لها ولا تحويل . .

● ففى «القوميات والأجناس» تعددية ، يتحدث عنها القرآن الكريم باعتبارها «آية» من آيات الله فى الاجتماع الإنسانى ، فيقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [٣] . . وهى تعددية فى إطار «جامع : الإنسان» . .

● وفى «الشعوب والقبائل» ، هناك تعددية ، تثمر التمايز ، الذى يدعو القرآن إلى توظيفه فى إقامة علاقات «التعارف» بين الفرقاء المتمايزين : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٤] . . فتعددية التمايز إلى شعوب وقبائل ، قائمة فى إطار «جوامع التعارف» بين بنى الإنسان . .

● وفى «الشرائع والمناهج» ، ومن ثم فى «الحضارات» ، هناك تعددية يراها القرآن الكريم الأصل الدائم والقاعدة الأبدية ، والسنة الإلهية ، التى هى الحافز للتنافس فى الخيرات ، والاستباق فى الطيبات ، والسبب فى التدافع الذى يقوّم ويرشد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء . . فهى المصدر والباعث على حيوية الإبداع الذى لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطُمست

الخصوصية بين الحضارات : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[٥] .. حتى ليتحدث المفسرون عن هذا «الاختلاف» وتلك التعددية فى الشرائع باعتبارها علة الخلق ، فيقولون : إن المعنى «وللاختلاف خلقهم» [٦] ! .. ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [٧] .. **فالتعددية هى الحافز على امتحانات وابتلاءات المنافسة والاستباق فى ميادين الإبداع بين الفرقاء المتمايزين فى الشرائع والمناهج والحضارات ..**

وفى إطار تعددية «الشرائع» ، تحت «جامع «الدين» الواحد» ، جاء الحديث فى القرآن الكريم عن نجاة أصحاب الشرائع المتعددة ، إذا هم جمعتهم جميعا أصول الإيمان بالألوهية الواحدة ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٨] .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٩] ..

بل وتحت جامع «النصرانية» و«أهل الكتاب» أشار القرآن الكريم إلى تعددية يتميز فيها الذين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ عن الذين لا يزيدهم هذا الذى أنزل على الرسول إلا ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ؟! . .

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[10] . . ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[11] . .

وفى هذا الإطار أيضـا ، إطار «وحـدة الدين» ، و «تعـددية الشرائع» ، جاء القرآن بتقرير هذه الحقيقة . . ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [12] . . على حين تتعدد شـرائع الأنبيـاء ومناهج أمم الرسـالات ، فى إطار جـامع الدين الواحـد ، وعلى النحـو الذى صـوره الحـديث النبوى الشـريف : «الأنبياء إخوة لعَلاَّت - (أمهـات متعـددات) - ، دينهم واحـد ، وأمهاتهم شتى» [13] . .

● وفى «رعية» الدولة الإسـلامية الأولى - دولة المدينة ، على عهد رسول الله - ﷺ - والتى فصلت الحديث عنها ، وعن حقوقها وواجبـاتها وعـلاقـاتها ومرجعيـتها «الصحيفة» - «الكتـاب» - (الدستور الأول للدولة الإسلامية الأولى) - . . فى هذه الرعـية ، ووفقا لهذا الدستور ، كانت هناك «تعددية» فى إطار «وحدة الأمة»

الوليدة . . فالقبائل غدت لبنات متعددة ، تحدثت «الصحيفة» عنها وعن أحلافها وحقوقها وواجباتها ، فى إطار «وحدة الأمة» ، و المهاجرون والأنصار جوامع فرعية ، أشارت إليهم «الصحيفة» فى إطار الجامع الإسلامى الواحد ، وفى إطار الأمة الواحدة . . والتعددية الدينية بين جماعة المؤمنين وجماعة يهود تحدثت عنها «الصحيفة» ونظمت أطر وآفاق تعدديتها فى نطاق جامع ووحدة الرعية والأمة بالمعنى السياسى . . وعن هذه «التعددية» فى إطار «الوحدة» نصت «مواد» «الدستور» فقالت :

«المؤمنون والمسلمون ، من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس» .

«وأن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» .

«وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن على يهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله» [١٤] . .

ففى إطار جامع الأمة الواحدة ، والدولة الواحدة ، ذات المرجعية الواحدة ، تعددت الانتماءات القبلية والدينية ، ونظم الدستور علاقات فرقاء هذا الانتماء . .

● ولألوان أخرى ، غير «التعددية الدينية» ، ضم جامع الأمة واحتضنت وحدتها . . فمن الذين آمنوا من عاد إلى الكفر بعد الإيمان . . لكن ، لأن «سلاحه» فى الخروج على الإيمان الدينى كان «الكلمة» ، وليس «السيف» ، فلقد وسعت الوحدة السياسية للأمة هذا اللون من الانشقاق الدينى ، لأن أصحابه قد حافظوا على

جامع الوحدة السياسية لرعية الأمة . . فهم قد شقوا جامع الوحدة الدينية مع الجماعة المؤمنة ، بعد أن استظلوا بظلاله ، لكنهم أبقوا - ببقائهم فى دائرة الفكر والجدل الديني - على رابط وجامع الوحدة السياسية للأمة والرعية . . وفي أسباب نزول الآية القرآنية ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٥) . . يروى أن نفرا من رؤوس أهل الكتاب - اليهود - تواصوا فقالوا : «تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم . . فيقولون : إنهم أهل كتاب ، وهم أعلم به منا ، فيرجعون عن دينهم ، ويصنعون كما نصنع . . فأنزل الله هذه الآية ، وأخبر نبيه - ﷺ - والمؤمنين» (١٦) . .

ولأن هذه «الردة» عن الإسلام ، لم تشق «الجامع السياسى» للرعية والأمة ، ببقاء أهلها بعيدا عن «الخروج والمفارقة» السياسية ، فلقد اتسع لأهلها إطار هذا الجامع ، على الرغم من «الخروج والمفارقة» لجامع «الإسلام الدين» لأن «الجامع السياسى» قد اتسع لأكثر من دين ! . .

وكذلك كان الحال مع «المنافقين» ، الذين «ارتدوا» عن الإسلام بقلوبهم ، مع إظهارهم الانخراط فى جماعة المؤمنين . . فلأنهم قد حافظوا على وحدة الجامع السياسى ، لم يقاتلهم رسول الله - ﷺ - حتى عندما كانت تظهر الفلتات التى تفضح النفاق . . لقد ظلوا فى إطار الجماعة ، واستمرت صحبتهم للرسول والمؤمنين . . وظل الرسول - ﷺ - محافظا على هذا الجامع ، ومنبها من همّ بقتلهم على خطأ قتل الأصحاب ! . .

وفيما يرويه الصحابى جابر بن عبد الله : « لما قسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غنائم هوازن بين الناس بالجعرانة ، قام رجل من بنى تميم فقال :

ـ اعدل يا محمد !

ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟! لقد خبت وخسرت إن لم أعدل ! » .

ـ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق ؟! . .

ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمدا يقتل أصحابه ! » (١٧) .

فنحن أمام «منافق» ، يبطن الكفر ويظهر الإيمان . . وهو فى الدرك الأسفل من النار ـ لأن النفاق أسوأ من صريح الكفر ! . . ومع ذلك ، يعتبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من «أصحابه» ، لأنه قد حافظ على الوحدة السياسية للأمة ، وشارك فى معاركها ، وكان له نصيب من غنائمها . . فاستعاذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالله من أن تتسامع الأمم أن محمدا يقتل من حافظ الوحدة السياسية للأمة ، حتى ولو كان قد فارق الإيمان الدينى بالنفاق ! . .

● بل لقد وسعت «وحدة الأمة الإسلامية» ألوانا من الانشقاقات السياسية بلغت حد الصراعات المسلحة ، لأن فرقاء هذه الصراعات قد ظلوا على ولائهم « للدولة الواحدة » فحافظوا على «الجامع السياسى» ، وعلى ولائهم «للدين الواحد» ـ فحافظوا

على «الجامع الدينى» - فكان قتالهم على «التأويل» ، لا على «التنزيل» . . وكانوا جميعا ، رغم القتال على ولاء لوحدة الدولة ووحدة الدين . . . ولقد كانت صراعات الفتنة الكبرى ، زمن الراشدين فى هذا الإطار ، الذى وسعت فيه «وحدة الأمة» فرقاء هذه الفتنة وذلك الصراع . . فلم يكن اقتتالهم بالمخْرِج لأى منهم من «الأمة» ولا من «الملة» ولا من «الدولة» ؟! . .

وفى موقعة «صفين » (٣٧ هـ ٦٥٧م) ، التى مثلت قمة صراعات تلك الفتنة ، يتحدث الإمام على بن أبى طالب عن «الجامع الدينى» الموحد لفرقاء القتال ، وكذلك «جامع الدولة» ، فيقول : «لقد التقينا ، وربنا واحد ، ونبينا واحد ، ودعوتنا فى الإسلام واحدة ، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان . ونحن منه براء . .»(١٨) . . فالدين واحد وجامع . . و«الأمر واحد» وجامع . . والخلاف فى «دم عثمان» - رضى الله عنه - فقط . .

ثم يرد شبهة الخوارج وتأويلهم الفاسد ، الذى كفَّروا به معاوية وأهل الشام ، فيقول : «إننا ، والله ، ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء - (الخوارج) - من التكفير والفراق فى الدين ، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة . . (أى الجماعة السياسية) . . وإنهم لإخواننا فى الدين ، قبلتنا واحدة . ورأينا أننا على الحق دونهم ! » (١٩) . . ثم يؤكد على أن مصادر النزاع هى « شبهات » أثمرها «التأويل» ، فهى لا تُخْرِج من «أخوة الإسلام» ، فيقول : «لقد أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا فى خصلة يلم الله

بها شعثنا ، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا ، رغبنا فيها ، وأمسكنا عما سواها» [٢٠] . . وعندما سئل عن رأيه في «آخرة» قتلى الفريقين ؟! . . أجاب : « . . وإنى أرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه ، منا ومنهم ، إلا أدخله الله الجنة» ! [٢١]

هكذا وسعت وحدة الملة والدولة التعددية ، حتى عندما بلغت درجة القتال ! . .

● وفى إطار «جامع أصول الدين» ، التى لم يختلف عليها المسلمون ، اتسع هذا الجامع «للتعددية» فى «الفروع» ، ومنها سياسة الأمة و «نظام» الإمامة والخلافة في دولتها . . لقد اتفق المسلمون على «أصل وجوب الدولة ـ الخلافة ـ الإمامة» ، وعدوها «واجبا مدنيا» اقتضته إقامة «الواجبات الدينية» . . وبعد الاتفاق على هذا « الأصل . . الجامع . . الموحِّد» ، ذهبت التعددية بالفرق الإسلامية مذاهب شتى فى «نظام الخلافة والإمامة» من حيث «التَّعَيُّن . . والشروط» . . بل وميزوا بين «أصل الوجوب» و «أصل الإمامة» ، بمعنى «طريق الوجوب» فقال البعض إنه «العقل» وقال آخرون إنه «الشرع» ، وقال فريق ثالث إنهما معا . .

وفى آفاق هذه الفروع ، حدثت بواكير الخلاف والتعدد . . بل وكانت جل الخلافات التى بلورت فرق المسلمين وتياراتهم السياسية ، وفى ميادينها وحدها كان تجريد السيوف ! . .

ولاتفاقهم على أنها من «الفروع» ، التى هى مواطن «للاجتهاد» ، اتفقوا ، أيضا ، على أن معايير التقييم لخلافاتها والتعددية فيها هى «الصواب» و «الخطأ» . . و «النفع» و«الضرر» . . وليست الإيمان و«الكفر» ! . . لأن «الإيمان» و «الكفر» هما معيارا

تقييم الافتراق والتعددية في «الأصول ، دون «الفروع» ! . .
ويلخص حجة الإسلام الغزالى(٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) هذا الذى أجمع عليه أهل السنة والمعتزلة والخوارج فيقول : « إن النظر فى الإمامة ليس من المهمات ، وليس أيضا من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات[٢٢] . . وإن النظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر . وماعداه فروع» .

ثم يمضى ليحدد معايير الافتراق والتعددية فى الفروع - وخاصة منها السياسة والإمامة - فيقول : «واعلم أنه لاتكفير فى الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة ، وهى أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتواتر . لكن فى بعضها تخطئة ، كما فى الفقهيات ، وفى بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة ، وأحوال الصحابة .

واعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لايوجب شىء منه تكفيرا ، فقد أنكر ابن كيسان[٢٣] . أصل وجوب الإمامة ، ولايلزم تكفيره . ولايلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله ورسوله ، ولا إلى خصومهم المكفِّرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة ، فكل ذلك إسراف ، إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول - صلى الله عليه وسلم - أصلا . ومهما - (متى) - وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان فى الفروع . . والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل . . »[٢٤] ؟! . .

فلقد وسع «جامع التصديق» بما جاء به الرسول - صلى الله عليه

وسلم ـ هذه التعددية السياسية ، التى مثلت فى التاريخ الإسلامى أقدم وأطول ألوان التعددية ، وأكثرها حدة فى هذا التاريخ ! . .

● وإذا كانت «الأحزاب السياسية» المعاصرة هى «اجتهادات متعددة» فى ميادين «إصلاح المعاملات» الاجتماعية فى ميادين العمران الإنسانى . . فإن تعددية «المذاهب الفقهية» ، التى عرفتها الحضارة الإسلامية ، ووسعتها «وحدة الأمة فى الأصول» ، قد مثلت «تعددية الاجتهادات» فى ميادين «إصلاح المعاملات . . وفروع العبادات» أيضا ! . . وكان «الجامع الموحِّد» لهذه «التعددية الفقهية» هو «الشريعة الإلهية الواحدة» . . والتى وضع الفقهاء مذاهبهم فى إطارها . .

فالشريعة مثلت «وحدة» «الطريق فى الدين . . وما شرع الله لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى . . وكل طريقة ـ من فعل أو ترك مخصوص ـ موضوعة بوضع إلهى ثابت من نبى من الأنبياء . .» [٢٥] . . أى أنها « واحد » جامع . . و «ثابت» غير متغير . . ووضع إلهى ، لا مدخل فيه للبشر . . فهى بلاغ من الله للناس ، بواسطة الرسول . .

أما مذاهب الفقه ، التى ترد فيها التعددية ، فإنها هى الاجتهادات الفقهية المحكومة بأحكام الشريعة الإلهية وفلسفتها فى التشريع . . فالفقه «وضع بشرى» محكوم «بالوضع الإلهى» . . وهو «العلم المستنبط بالرأى والاجتهاد ، والذى يحتاج فيه إلى النظر والتأمل» .

ولتميز «الفقه» عن «الشريعة» ، لايسمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ «فقيها» ، كما لايسمى الفقيه «شارعا»[٢٦]"؟!

● وإذا كان «جامع الإيمان» و «موحِّد المؤمنين» هو «التصديق بما جاء به الرسول - ﷺ - فإن مظلة هذا «الجامع» وإطار هذا «التصديق» قد اتسع لتعددية أثمرها «التأويل» فيما يجب أو يجوز فيه «التأويل» ، فإذا ما التزم الفرقاء المتأولون بقواعد التأويل - التى قررتها العربية . . والتى لاتخرجه عن ثوابت «التصديق الجامع» ، انفسحت أمامهم آفاق التعددية فى هذا الإطار ، الذى يعطى «مذاهب الفكر» طابعها «الإسلامى» مع ما بينها من فروق وتعددية فى التصورات . .

وإذا كان تعريف ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) للتأويل يقول : «إنه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل بعادة لسان العرب فى التجوز ، من تسمية الشئ بشبيهه ، أو بسببه ، أو لاحقه ، أو مقارنه ، أو غير ذلك من الأشياء التى عددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى . .»[٢٧] . . فإن الإمام الغزالى يفصل «لمراتب الوجود» ، التى تتصورها التأويلات المتعددة «لما أخبر به الصادق» ، تفصيلا يجعل للتعددية ، النابعة من التأويل ، خمسة مذاهب مفتوحة سبلها أمام تصورات العقل المسلم للموجودات التى تحدث عنها الرسول - ﷺ - والتى للتأويل مدخل فى تصورها . . فالإيمان قائم عند فرقاء هذه التأويلات والتصورات ، لقيام التصديق ، وانتفاء «التكذيب» لصاحب الرسالة - عليه الصلاة والسلام - . . لأن «الكفر : هو تكذيب الرسول فى شىء مما جاء به . والإيمان : تصديقه فى جميع ما جاء به . . وحقيقة التصديق : الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول - ﷺ - عن وجوده . إلا أن للوجود خمس مراتب :

الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي ، الثابت خارج الحس والعقل ، ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة ، فيسمى أخذه إدراكا . .

والوجود الحسي: الذى يتمثل فى القوة الباصرة من العين ، مما لا وجود له خارج العين ، فيكون موجوداً فى الحس ، ويختص به الحاس ، ولا يشاركه غيره ، وذلك كما يشاهد النائم ، بل كما يشاهد المريض المتيقظ . .

والوجود الخيالي: الذى يخترعه الخيال لصور المحسوسات إذا غابت عن الحس ، فهو موجود فى الدماغ لا فى الخارج . .

والوجود العقلي: فيما له روح وحقيقة ومعنى . . كاليد ، مثلا ، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة ، ولها معنى هو حقيقتها ، وهى القدرة على البطش - التى هى «اليد العقلية» . .

والوجود الشبهي: وهو أن لا يكون نفس الشيء موجودا ، لا بصورته ولا بحقيقته ، لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل ، ولكن يكون الموجود شيئا آخر يشبهه فى خاصة من خواصه وصفة من صفاته . .

وكل من نَزَّل قولا من أقوال صاحب الشرعة - ﷺ - على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين ، وإنما التكذيب : أن ينفى جميع هذه المعانى ، ويزعم أن ما قاله لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا ، وذلك هو الكفر والزندقة . ولا يلزم كفر المتأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل . . وكيف يلزم الكفر بالتأويل ، وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه ؟! . .»[٢٨] .

هكذا انفتحت سبل التعددية واتسعت آفاقها أمام «تيارات الفكر» الإسلامى ، فى إطار «وحدة وجامع التصديق» بما جاء به الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ! . .

وهكذا ظلل «الجامع الإسلامى» الذى وحد الأمة والعقيدة والحضارة ودار الإسلام . . ظلل تعددية فى اللغات والأقوام . . وفى الثقافات الفرعية . . وفى الأوطان والأقاليم المتميزة . . وفى الفرق السياسية . . وفى المذاهب الفقهية . . وفى التيارات الفكرية والمدارس الفلسفية . . وأيضا فى الشرائع والحضارات ، فازدهرت تعددية الإجتهادات البشرية ، فى إطار الجامع الثابت الذى تمثل فى أصول الإيمان بالله الواحد . . واليوم الآخر . . وخبر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام . .

***

بل إن «السبيل الإسلامية» ، التى حددها الإسلام ، وتميزت بها شريعته ، فى «حل التناقضات» بين فرقاء التعددية ، جاءت طبيعتها وآلياتها ومقاصدها لتكرس قيام هذه «التعددية» عند المستوى الوسطى ، الذى لا يذهب بها إلى «إلغاء الآخر و نفيه» . . ولا إلى «التشرذم» و «القطيعة» التى لا رابط ولا جامع يوحد بين فرقائها . . فلقد رفض الإسلام مذهب «الصراع» سبيلا لحل التناقضات بين فرقاء التعددية ، لأن «الصراع» غاياته «صرْع . . وإفناء . . ونفى» الآخر ، ومن ثم فهو يلغى التعددية وينفيها . . هكذا جاء معناه فى الموطن الذى ورد مصطلحه بالقرآن الكريم ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾(٢٩) ؟! . . فالصراع غايته إهلاك

الآخرين ، حتى لا ﴿ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ! . . فسلوك سبيله فى حل التناقضات بين الفرقاء ينفى فلسفة التعددية ويلغى وجودها . .

وبدلا من «الصراع» ، سبيلا لحل التناقضات بين فرقاء التعددية ، زكى الإسلام «سبيل التدافع» ، الذى لا يتغيا «نفى الآخر» ، وإنما «تعديل موقعه» من «المعايير الإسلامية الجامعة والضابطة والحاكمة» . . فهو «حراك» لا «إهلاك» ، و «تعديل» فى المواقع والمواقف لا «نفى وإلغاء» للآخرين . . وعندما يخاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ـ ﷺ ـ فيقول له : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(٣٠) . . فإنه يعلمنا معالم هذا السبيل . . فالتدافع لا يتغيا «صرع الآخر وإلغاءه» ، وإنما تحويل موقفه وموقعه عن «العداوة» ، التى تجعله من أهل «السيئات» ، إلى موقع وموقف «الولى الحميم» ، الذى يجعله من أهل «الحسنات» ! . . فيتم «الحراك» ، بواسطة «التدافع» ، مع بقاء «تعددية الفرقاء المتمايزين» ! . .

بل لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه «السبيل الإسلامية» – سبيل «التدافع» ، لا «الصراع» – باعتبارها الحافز الذى يدفع الحياة والعمران إلى الأمام دائما وأبدا . . وهذا يعنى اقتران التقدم بالتعددية ، إذ بدونها لا تدافع ، لأنه مستحيل بدون وجود الفرقاء المتدافعين أبداً ؟! ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٣١) . . وعندما أذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله والمؤمنين بالقتال ، جاء الحديث عن

«التدافع» ، لتكون غايات القتال تعديل مواقف المشركين من مواقع الشرك إلى الإيمان ، فهي «حراك» لا «نفى وإهلاك» . ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٣٢] . .

فهى ، إذن ، سبيل إسلامية واضحة : «التعددية» فى إطار «الجامع» . . و«التنوع» فى إطار «الوحدة» . . وبغيبة طرف منهما يغيب المعنى وتغيب الحكمة عن الطرف الآخر ! . .

● «فالشرائع» المتعددة ، لا تتأتى تعدديتها إلا فى إطار «الدين» الواحد ، وبالنسبة إليه ، وبالمقارنة معه . .

● و«الحضارات» المتعددة ، لا تتأتى تعدديتها إلا فى إطار «المشترك الإنسانى العام» المتميز عن الخصوصيات الحضارية . .

● والتعددية داخل أية حضارة من الحضارات ، لا تتأتى إلا مع وجود المرجعية الواحدة ، والجامع الواحد ، فى هذه الحضارة . . فلو انتفت المرجعية الواحدة - والموحدة للحضارة - انتفى معنى «التعدد» في هذه الحضارة أيضا ! . . فلا تعددية بدون «استقلال . . وتميز» لحضارات هذا العالم الذى نعيش فيه ؟! . .

***

وإذا كانت بضدها تتميز الأشياء . . والشيء يظهر حسنه الضد . . فإن هذا الذى تميزت به الحضارة الإسلامية فى الإيمان بالتعددية ، وتجلى فى تطبيقاتها بمختلف الميادين ، وعلى كل المستويات ، لا تتبدى حقيقته الكاملة ، ولا تتألق دلالاته العظيمة ، إلا إذا قورن - ولو بإشارات - لما كانت عليه - بل ولا تزال - الحضارة الغربية فى هذا الميدان .

● فبالمقارنة ، سيتأكد أن الفارق بين الحضارتين ، فى هذه القضية ، ليس مرجعه «التسامح» الذى تحلى به حكام مسلمون ، وافتقر إليه حكام غربيون . . إذ «التسامح» ، فى النهاية ، خُلُق فردى ، لا يثمر قاعدة مطردة على مر تاريخ حضارة من الحضارات ، وفى مختلف ميادين عمرانها . . بل إن هذا «التسامح» ذاته ، هو فى جوهره ثمرة - إن فى وجوده أو غيابه - لموقف حضارى ، ومكوِّن من مكوِّنات الحضارة ، التى تحييه أو تواريه ! . .

● وبالمقارنة ، سنعرف كيف أن الشعب المصرى ، مثلا ، عندما تدين «بتوحيد» «أتون» فى عصر أخناتون (١٣٧٧ - ١٣٥٤ ق .م) ، اضطهد كهنة «آمون» وأتباعه . . فلما انتصر كهنة «آمون» اقتلعوا «توحيد» دعوة «أخناتون» من الجذور ، وطاردوا أتباعه فى كل مكان ! . . وكيف أن هذا الشعب المصرى عندما تدين بالنصرانية لم يعرف التسامح مع الديانة المصرية القديمة ، فمارس الاضطهاد ، بل والإبادة مع كهنتها وفلاسفتها ومدارسها ومكاتبها ومتاحفها ومعابدها وأتباعها جميعا . . فلما تدينت الدولة الرومانية - الحاكمة - بذات الديانة النصرانية (٣١٣م) ، ولكن بمذهب متميز عن مذهب المصريين النصارى ، لم

تعرف التسامح معهم ، بل لقد عاشوا حقبة اضطهادهم ، وعصر الشهداء الذى تؤرخ به النصرانية المصرية حتى الآن ! . .

لكن هذا الشعب المصرى ذاته - الذى لم يعرف التسامح الدينى فى تاريخه القديم - هو ذاته الذى أصبح مضرب الأمثال فى كل بلاد الدنيا على التسامح الدينى ، عندما تدين بالإسلام ؟! . . فعاشت فى ظلال إسلامه أكبر الأقليات النصرانية فى بلد إسلامى ، وازدهرت فى حضارته الإسلامية أعرق كنائس النصرانية على الإطلاق ، وتعانقت فى ثوراته وأفراحه وأتراحه شعارات «الهلال» و «الصليب» ! . . بل إن أغلبية هذا الشعب قد ظلت على نصرانيتها ، فى ظل الحكم الإسلامى ، عدة قرون . . ولم تدخل هذه الأغلبية فى الإسلام أفواجا إلا عندما عجزت كنيستها عن تلبية حاجاتها الروحية ، وبدا لها - بالمقارنة مع بساطة عقيدة التوحيد الإسلامية - تفوق الإسلام فى تلبية هذه الحاجات ، فاندفعت أفواجها إلى الإسلام ، دون ترهيب ولا ترغيب . . ويشهد على هذه الحقيقة - بعد وقائع التاريخ - أحد علماء النصرانية - «كيتانى» Caetani - فيقول : «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى . أما الشرق ، الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة ، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما أهلّت ، آخر الأمر ، أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء ،

لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد ، الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا جليلة ، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى العرب » !

لقد أقبل الناس على الإسلام ، الذى رأوه - كما يقول : «مونتيه» «عقلانى الجوهر ، بأوسع معانى هذه الكلمة» . . أقبلوا عليه «دون أية محاولة للإرغام والاضطهاد» - كما يقول «أرنولد» (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام)[٣٣] . . فتم تحول جمهور المصريين إلى الإسلام ، فى ظل «التعددية» ، المؤسسة على الحرية والاختيار . وعبر قرون عدة ، فكانت التجربة العظمى التى تعلم فيها هذا الشعب التسامح الدينى لأول مرة فى تاريخه الطويل ! . .

● وبالمقارنة ، سنجد أن دار الإسلام قد تفردت بين أوطان الحضارات ببقاء الديانات ، السابقة على الإسلام ، جميعها فيها ، بعد ظهوره ، وفى ظل دولته وحاكمية شريعته ، مع ازدهار مدارس لاهوتها كلها ، بل لقد تمتعت هذه الديانات كلها ، فى ظل الإسلام ، بالتعددية التى حافظت على علاقاتها ، والتى ضبطت وقننت هذه العلاقات السلمية لأول مرة فى تاريخها ، حيث طوى الإسلام نهائيا صفحة «الحروب الدينية» بين أتباع كل الديانات ! وكان - تاريخيا - المنظم لتعددية المذاهب داخل مختلف الديانات! . . ولم يقف ذلك عند أتباع الديانات الكتابية المعروفة ، وإنما شمل ديانات وضعية

وشبه وضعية - مثل ديانات فارس والهند والصين - أدخلها الفقهاء المسلمون في عداد الديانات الكتابية ، وقالوا لقد كانت لها كتب فضاعت ، أو لعل أمرها كان كذلك ؟! . .

حدث هذا الإنجاز - في ميدان «التعددية» بدار الإسلام ، وعلى امتداد تاريخه . . في الوقت الذي ضاقت فيه صدور أوروبا الوثنية بكل ما هو «آخر» وغير وثني . . فلما تدينت بالنصرانية ضاقت صدورها بكل ما هو غير نصراني . . بل وضاقت حتى بالتعددية المذهبية داخل النصرانية الواحدة . .

فـ «شارلمان» (٧٤٢ - ٨١٤م) فرض النصرانية على السكسونيين بحد السيف . . وفي الدانمرك ، استأصل الملك «كنوت» Cnut الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب . . وفي بروسيا ، فرضت جماعة «إخوان السيف» Bretheren Of The Sward المسيحية على الناس بالسيف والنار . . وفي ليڤونيا ، فرض فرسان Drdo Dratrum Militiae Christ المسيحية على الشعب فرضا . . وفي جنوب النرويج ذبح الملك «أولاف ترايجفيسون» كل من أبى اعتناق المسيحية ، أو قطع أيديهم وأرجلهم ، ونفاهم وشردهم ، حتى انفردت المسيحية بالبلاد . . وفي روسيا ، فرض فلاديمير Vladimir عام ٩٨٨م المسيحية على كل الروس ، سادة وعبيدا ، أغنياء وفقراء ، غداة اعتناقه لها ! . . ولم يعترف فيها بإمكانية تعدد الأديان إلا في مرسوم صدر عام ١٩٠٥ ! . . وفي الجبل الأسود - بالبلقان - قاد الأسقف الحاكم «دانيال بيتروفتش» D.petrovich عملية ذبح غير المسيحيين - بمن فيهم من المسلمين - ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣م ! . . وفي المجر ، أرغم الملك «شارل روبروت» غير المسيحيين على التنصر أو النفي من البلاد عام ١٣٤٠م . .

وفى أسبانيا – قبل الفتح الإسلامى – كان المجمع السادس ، فى طليطلة ، قد حرم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكى . . وأقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة . .» ؟! . .

وحيثما امتد نفوذ وحكم الحضارة الغربية ، امتد الإنكار للتعددية «فاليعاقبة ، فى مصر والشرق ، اضطهدهم الأرثوذكس الملكانيون ، بالقتل والنفى والتشريد . . وقتل «جستنيان الأول» (٥٢٧ – ٥٦٥م) مائتى ألف من القبط فى مدينة الإسكندرية وحدها ، حتى اضطر من نجا من القتل إلى الهرب فى الصحراء! . . وفى أنطاكية ، حدث نفس القهر والاضطهاد لمعتنقى غير المسيحية ، بل وغير مذهب الدولة الرومانية بالذات ! . . وفى الحبشة ، قضى الملك «سيف أرعد» (١٣٤٢ – ١٣٧٠م) بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد . . وصنع مثل ذلك الملك «چون» فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى!» . ناهيك عن مأساة المسلمين – وأيضا اليهود – فى الأندلس على يد فرديناند (١٤٥٢ – ١٥١٦م) وإيزابيلا (١٤٥١ – ١٥٠٤م)[٣٤] .

وبعد ظهور البروتستانتية ، كانت إقامة قداس بروتستانتى فى بلد كاثوليكى عقوبتها : سجن النساء مدى الحياة ، وإرسال الرجال للتجديف حتى الموت ، وإعدام الكهنة ! . . وكانت المواكب تسير ، فى ذكرى المذابح الدينية ، شكرا لله ؟![٣٥] .

وعندما يحتفل الغرب – فى «برشلونة» – سنة ١٩٩٢م – بالدورة الأولمبية – إحياء لذكرى خمسمائة عام على إبادة المسلمين فى الأندلس ؟! . . ثم يتبع ذلك بمجزرة إبادتهم فى البلقان ؟! . . فإنه يعلمنا أن رفضه للتعددية ليسْ بالصفحة التى طواها تطور

التاريخ ؟! . . ففارق بين حضارة لا تريد للآخر الديني «وجودا» على خريطة أوطانها . . وبين حضارة حافظت وتحافظ على وجود الآخر الديني حفاظها على الشعائر الدينية التي تتقرب بالحفاظ عليها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتنفذ به سنة رسوله ـ ﷺ ـ ، بل لقد تجاوزت في ذلك مستوى الحفاظ على «وجود» الآخر ، إلى حيث تستطيع أن تقرأ أسماء أعلام الأقليات الدينية في تراجم وزراء دول الإسلام على مر التاريخ ! . .

وإذا كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما فتحت القدس – قد أبى أن يصلي في كنيسة القيامة ، كي لا تكون هناك شبهة ، لمن يأتي من بعده ، بوجود «حق» للمسلمين فيها . . فإن الصليبيين الذين اغتصبوها (٤٩٢ هـ ١٠٩٩م) لم يكتفوا بإبادة المسلمين في مذبحة سبحت فيها خيولهم بدماء المسلمين في مسجد عمر ؟! . . وإنما حولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة . . وإبان سنوات الاغتصاب للقدس والأقصى ، اشتاقت نفس الأمير المؤرخ أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ – ١١٨٨م) للصلاة في الأقصى ، فذهب إليه – بواسطة علاقات كانت له مع بعض الفرسان الصليبيين . . فلما توجه إلى القبلة ، ودخل في الصلاة ، إذا بمن يحول وجهته عن قبلة الإسلام قسرا . . وكلما عاد إلى قبلة الإسلام أعاده إلى قبلتهم . . فهم لا يعرفون – وإن عرفوا لا يطيقون – التعددية حتى في التوجه إلى رب المشارق والمغارب جميعا ؟! . .

● وبالمقارنة ، بين الفتح الإسلامي – الذي كان يسلك للتعايش مع «الآخرين» طريق «التعددية» – وعليها يتأسس التسامح ، الذي تقننه الشريعة ، لا المرهون بسجايا حاكم من الحكام ، أو خلق أمير من الأمراء – بمقارنة هذا الفتح بما صنعه بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١م)

– نموذج «الحرية . . والإخاء . . والمساواة» الغربية ، فى أرقى وأحدث صورها – مع المصريين عندما جاءهم طليعة للغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة . . نكتشف الفارق بين حضارتين فى هذا الميدان . .

فإبان الفتوحات العثمانية فى البلقان ووسط أوروبا ، صاغ القصص الغربى أسطورة تناقلها الناس أثناء وعقب الحرب بين السلطان العثمانى والأمير المجرى «هنيادى» . . تقول : إنهم سألوا الأمير المجرى . .

– ماذا تصنع لو انتصرت على المسلمين ؟

– فقال : أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية . .

فلما سألوا السلطان العثمانى :

– ماذا تصنع لدينا لو انتصرت ؟

– قال : «أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحرية لكل فرد أن يصلى فى أيه ما شاء»[٣٧] ؟! . .

أما بونابرت الذى لم يتعلم التعددية ، ولم يعرفها سبيلا للتعايش مع «الآخر» ، فلقد رأيناه يسلك إلى التعايش مع المصريين سبيل الكذب عندما ادعى «أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون» . . وأنه أكثر من المماليك يعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ويحترم نبيه محمد والقرآن العظيم»[٣٨] . . وأنه «محب الملة المحمدية»[٣٩]»؟! . .

فهذا فاتح يمثل حضارة لم تعرف التعددية سبيلا إلى التعايش مع الآخرين . . وذاك فاتح كانت التعددية سبيل حضارته إلى التعايش مع الآخر ، داخليا وخارجيا . . وعلى كل المستويات ! . .

***

وبدلا من أن يتعلم الغرب من الشرق الإسلامى فضيلة «التعددية» ، أو حتى يترك له فضيلته ، إذا به يجعل من احتكاكه بالشرق وبالا عليها ، وجناية فى حقها ! . .

فهو فى الحقبة الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م) - عندما كان فى طور انحطاطه الحضارى . . وطغيان فروسية إقطاعه الغاشمة - حاول استدراج قطاعات من الأقليات النصرانية إلى «خيانات عسكرية» للجيوش الإسلامية ، فجلب على هذه الأقليات محنا شهيرة - مثل الذى حدث فى الإسكندرية ودمشق - إبان الصراع مع الصليبيين والتتار - وهى محاولات أحدثت توترات انتهت بإنتهاء هذه المواجهات المسلحة . .

لكن الغرب ، فى غزوته الحديثة لعالم الإسلام ، قد جاء - مع المدفع ، والنهب الاقتصادى ، والاحتلال العسكرى - بنموذجه الفكرى ، الذى تبلور وازدهر فى عصر النهضة والإحياء . . وهو قد عزم ـ هذه المرة ـ على احتلال العقل العربى والمسلم ، لتتأبد تبعيتنا له حتى بعد زوال احتلال الجيوش . . وكانت الأقليات - اليهودية ، والنصرانية - هى الثغرات التى بدأ منها جهود الغزو الفكرى والتبعية الحضارية والتغريب . . الأمر الذى حول «نعمة التعددية» ، التى تميز بها الشرق ، ونعمت بها أقلياته ، إلى «نقمة» على هذا الشرق بما فى ذلك هذه الأقليات ! . .

لقد جاء الغزو الفكرى طالبا من أمتنا التخلى عن تميزها الحضارى ، وتبنى النموذج الغربى فى التقدم والنهضة والتحديث ، وتقليد المذهب الوضعى الغربى فى الحكم والإدارة

والتشريع . . أى طالبا منا التخلى عن التعددية الحضارية ، والإيمان بواحدية الحضارة بدلا من تعدديتها . . ولقد استوت فى ذلك مذاهبه «الشمولية» مع مذاهب «الليبراليين» !

وإذا كان «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) طليعة هذه الغزوة ، قد سعى - منذ حملته على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) - إلى توطين «العمالة الفكرية والحضارية» فى «محاضن» الأقليات ، تمهيدا لقيام هذه «العمالة الفكرية والحضارية» بمهام «العمالة السياسية» للمشروع الغربى فى الشرق الإسلامى . . فإن جهود حملته ، وما تلاها من حملات ، قد حققت من النجاحات فى هذا الميدان الشىء الكثير ! . .

لقد جاء «بونابرت» على رأس «جيش الشرق» الفرنسى **«وفى جعبته مشروع لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات العثمانية التى يفتحها . .» ؟!**(٤٠) .

● ولقد ألقى إلى اليهود خيوط «الشراكة» فى المشروع الاستعمارى الغربى ، خيانة للشرق الإسلامى ، منذ ندائه الذى وجهه إليهم فى ٤ إبريل سنة ١٧٩٩م - أثناء حصاره لمدينة «عكا» . . وهو النداء الذى خاطبهم فيه ، ودعاهم إلى التحالف مع فرنسا لإقامة إمبراطوريته الشرقية ، مقابل إقامة قاعدة لهم ، تمثل امتدادا لهذه «الشراكة» فى «فلسطين» قلب عالم الإسلام . . وجاء فى هذا النداء : «يا ورثة فلسطين الشرعيين ! . . إن الأمة العظيمة- (فرنسا) - تناديكم الآن ، لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب ، وليس بغية استرجاع ما فقد منكم ، بل لأجل

ضمان ومؤازرة هذه الأمة ، لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم ، كيما تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين»[٤١] ! . .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت خيوط «الشراكة» الغربية مع الأقلية اليهودية ضد استقلال وطن العروبة وعالم الإسلام ، مع تغير الدولة الغربية القائدة في هذه «الشراكة» ، وفق متغيرات موازين القوى . . فرنسا أولا . . وانجلترا ثانيا . . ثم الولايات المتحدة الأمريكية ! . .

ولقد أثمرت هذه «الشراكة» «قاعدة» للحضارة الغربية في قلب عالم الإسلام ، جعلت وتجعل من أوليات مهامها : الحيلولة دون البعث الإسلامي المتميز والإحياء القومي الخاص ، اللذين يتخذان لأمتنا مرجعية في النهوض والتقدم غير مرجعية الغرب والغربيين ! . .

● كذلك ألقى «بونابرت» خيوط «العمالة» إلى نفر من «أراذل» النصارى في مصر - من الأقباط والطوائف الأخرى - فكونوا فيلقا قبطيا حارب الشعب المصرى مع قوات الاحتلال ، وقاده «المعلم» يعقوب حنا (١١٥٨ - ١٢١٦ هـ ١٧٤٥ - ١٨٠١م) - الذى سماه الجبرتي «يعقوب اللعين» ! - . . وفيلقا من النصارى الأروام ، قاده «برطلمين يني الرومى» - الذى اشتهر لدى العامة بـ «فرط الرمان» ! . .

وكما يقول الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) - مؤرخ العصر - فإن فيلق المعلم يعقوب قد ضم من شباب القبط بالصعيد نحو الألفين[٤٢] . . وشارك هذا الفيلق مع الجيش الفرنسي - الذى قاده «ديزيه» في «فتح صعيد مصر» ! . . وتدرج يعقوب في مراتب الجيش الفرنسي ، فمنحه «كليبر» رتبة «كولونيل» ، وأنعم عليه «منو» برتبة «جنرال» في مارس سنة ١٨٠١م . .

وغـيـر مـشـاركـة هذه القطاعـات من أبناء الأقليـات فى العـمل العسكرى - فتحا . . وقمعا لثورات الشعب المصرى ضد الحملة الفـرنسـيـة - . . فـإن «بونابرت» عندمـا فكر فى تكوين ديوان للمـشـورة ، جـعل لهـذه الأقليات نصف عضوية الديوان الدائم والخاص ؟! . . خـمـسـة من علمـاء الأزهر ، واثنان من التـجـار المسلمين . وسبعة من الأقليات النصرانية . . ومع الأربعة عشر عضوا عدد من الفرنسيين[٤٣] ! . .

أما الجهاز الإدارى والمالى - أى الحكومة الحقيقية - فلقد اختص الفرنسيون بها هذه الشريحة من أبناء الأقلية النصرانية ، فكانوا جـهاز القـهـر وأدوات القـمع لجـمـهـور الشـعب . . فالمعلم يعقوب ، قد عهد إليه الجنرال كليبر - كما يقول الجبرتى - «بأن يفعل فى المسلمين ما يشاء» ؟! [٤٤] . . فرأس «ديوان الفرَد» أى جمع الغرامات والجبايات من المواطنين ، ومارس فيه إذلال الناس ، حتى لقد احتجز كبار العلماء فبال بعضهم فى ملابسه أثناء الحجز؟! . . و«جرجس الجوهرى» ، عينه «بونابرت» مسئولا عاما عن تحصيل الضرائب العقارية ، وعهد إليه تنظيم الموارد المالية للحكومة ! . . وكذلك كان الحال مع قادة هذه الشريحة العميلة من أبناء الأقلية النصرانية - أنطون أبو طاقية . . ويوسف الحموى . . وفلتاؤس . . وملطى . . وشكر الله . . وعبد الله . . وبرطلمين ينى الرومى - . . كما عين الفرنسيون منهم جهازاً للتجسس على المسلمين ! . .

وإذا شئنا عبارة توجز هذا الذى صنعته الحملة الفرنسية بالأمة بواسطة هذه الأقلية النصرانية ، فيكفى أن نقرأ عبارة الجبرتى التى

يقول فيها : «وتطاولت النصارى ، من القبط والنصارى الشوام ، على المسلمين بالسب والضـرب ، ونالوا منهم أغـراضـهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصلح مكانا ؟! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»[٤٥] ؟! . نعم . . لقد كان انقلابا على «ملة المسلمين وأيام الموحدين» ، أراد به الفرنسيون استخدام الأقليات لاخضاع مصر لحضارتهم ، وتغيير هويتها من الأساس . .

وعلى يد هؤلاء العملاء ، بدأ حديث فى الشرق عن الالتحاق بالغرب حضاريا ، وعن «استقلال» مصر عن هويتها ومرجعيتها الإسلامية . . «استقلالها» عن تاريخها وتراثها الإسلامى ، و«استقلالها» عن المحيط العربى والإسلامى . . وبتعبير معاصر ، بدأ الحديث عن «الحداثة» التى تقيم قطيعة معرفية مع الماضى ومع المحيط ! . . مع الخضوع للنفوذ الغربى ، والإلحاق بالنموذج الأوروبى فى التقدم والتحديث ! . . أى إلغاء التعددية فى المرجعية الحضارية ، واستبدال المرجعية الغربية بمرجعية الإسلام . .

ولقد «أوصى» المعلم يعقوب - بعد هزيمة الحملة الفرنسية ، وخروجه ونفر من زملاء الخيانة فى ركاب جيشها المطرود - أوصى انجلترا - بعد فشل المشروع الفرنسى - بالسعى «لاستقلال» مصر عن محيطها الإسلامى -«العثمانى يومئذ» - ، وإخضاعها للنفوذ الإنجليزى . . فقال : «توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهمّ الإنجليز ، قبل أن تقع الواقعة ، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه ، فيحققوا مصالحهم السياسية . وإذا كان من

المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . . إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ، ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها . . إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر . . وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعى الأمة ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء ! . .

وللدفاع عن هذا الاستقلال . . فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ جندى ، يكفسون تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر . . إن أى حكومة فى العالم أفضل من الاستبداد التركى . .[٤٦] . . ؟! . .

فالدعوة هى إلى «استقلال» مصر عن الدائرة الإسلامية ، بواسطة القوة الجبرية القاهرة التى يفرضها الإنجليز على المصريين الجهلاء . . وهو «استقلال» تحرسه حراب قوة أجنبية ، يدفع المصريون الجهلاء نفقاتها . . وذلك فى مقابل استئثار إنجلترا بتجارة مصر الخارجية ، و «ضمان ما تريد من نفوذ فيها» . . فكل ذلك أفضل من «الاستبداد التركى» ؟! . .

تلك هى «الوصية» ، التى وإن بدا أن الإنجليز لم يعيروها اهتماماً ، عندما أودعوها «إرشيف» محفوظات وزارة خارجيتهم . . إلا أنها تمثل المخطط الذى تم تنفيذه . . فرض النفوذ السياسى والفكرى الغربى

على مصر . . وبمقدار تعاظمه كان مقدار عزل مصر عن الدائرة الإسلامية - «العثمانية يومئذ» - إلى أن تم الإلحاق الكامل لها بالغرب بعد الاحتلال الإنجليزى . . وهو ذات المخطط الذى أخرجت فصوله فى أغلب أقاليم وطن العروبة وعالم الإسلام . .

أما رفقاء المعلم يعقوب - الذين نزلوا «مرسيليا» - بعد موته على ظهر السفينة فى عرض البحر - فلقد استمر رهانهم على فرنسا . . فإذا كانت قد فشلت فى أخذ مصر «مستعمرة» ، فإن أمامها أن تعمل بواسطة الأقلية التى ادعوا تمثيلهم لها ، على «استقلال» مصر عن محيطها الإسلامى ، وإخضاعها «للنفوذ الفرنسى» . . وفى مذكرة مرفوعة إلى «بونابرت» - القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من «الوفد المصرى» - وموقعة باسم «وكيله : نمر أفندى» - ومؤرخه فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م . . يقولون لبونابرت : **إنك «إذا عملت فى معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة ، فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة» ؟!**

تُرى ما هو هذا «الاستقلال» الذى يفوق فى حسابات مغانم المحتل مكاسب احتلاله مائة مرة ؟؟ . .

وهم يعرضون خدماتهم فى إخضاع مصر فكريا وتشريعيا وحضاريا لفرنسا ، فيقولون لبونابرت : **«إن الوفد المصرى ، الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك ، سَيُشَرِّع لمصر ما ترضاه لها من نُظم عندما يعود إليها من فرنسا [٤٧]» ؟!**

وفى مذكرة أخرى رفعها هؤلاء العملاء إلى وزير الخارجية الفرنسى «تاليران» (١٧٥٤ - ١٨٣٨م) امتدت بهم آفاق العمالة لتمد آفاق الإغراء أمام فرنسا ، كى تعمل على تحقيق «استقلال»

مصر عن عمقها وتراثها ومحيطها الإسلامى ، وإلحاقها بالنفوذ الغربى - فلقد قالوا إن مصر التابعة لفرنسا ، ستكون بوابة النفوذ الفرنسى إلى قلب أفريقيا . . وفى ذلك تحقيق لحلم لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥م) الذى أراد تحقيقه بضم الكنيسة الأثيوبية إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . . ولما كان «مفتاح» الكنيسة الأثيوبية - وهى قبطية - فى مصر . . فإن «الوفد القبطى» يعرض على «تاليران» أن يحققوا لفرنسا هذا الحلم القديم ، الذى يبدأ باستقلال مصر عن إسلاميتها ، وإلحاقها بالنفوذ والنظم والتشريعات الغربية ! . .

لقد عرضوا ذلك ، وقالوا عنه فى مذكرتهم : **«لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط إفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة الإثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق فى مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم . . . - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية ، التى ستكون موالية لها ، مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا . . وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية المطلقة الاستبدادية»[٤٨] ؟!**

فالمقاصد والغايات هى : «استقلال مصر» عن الدائرة الإسلامية والهوية الإسلامية . . وإخضاعها للنفوذ الفرنسى والتأثير الفرنسى فى النظم والتشريع ، واستخدام الأقلية القبطية أداة لتحقيق هذا

«الاستقلال» الذى يجعل مصر «موالية» لفرنسا ، وبوابة لقلب أفريقيا الأرثوذكسى ، عبر الكنيسة الأرثوذكسية المصرية ؟! . .

هكذا بدأ الحديث عن هذا «الاستقلال» ، فى ظل هذه «الشراكة» بين الغرب والأقليات . . وهو - كما نطقت الوثائق - **إلحاق وتبعية . . ومن ثم إلغاء للتعددية الحضارية ، والتميز الحضارى الذى عاشت به وفى كنفه هذه الأقليات ! . .**

ومن عجب أن هذا النفر من «أراذل الأقباط» - والذين لم ترض عن مسعاهم كنيستهم . . ولا جمهور طائفتهم - كانوا يتسولون هيمنة الغرب على بلادهم ، بعد خيانتهم لها ، وتحولهم إلى سياط للفرنسيين اكتوت بها ظهور الشعب . . كانوا يصنعون ذلك ، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه الأمة ، المؤمنة «بالتعددية» ، العفو عن خياناتهم ، وأعطت لهم ولذويهم عهود الأمان والاطمئنان ؟! . .

ففى يوم ٢ صفر سنة ١٢١٦هـ - أى قبل رحيلهم مع الجيوش الفرنسية المنسحبة - **أعلنت مصر «أمانا لأكابر القبط»** .

وفى يوم ٨ ربيع الأول سنة ١٢١٦هـ «نودى - فى مصر - **بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى ، سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان ، والماضى لا يعاد» ؟!**

وفى يوم ٣ ربيع الثانى سنة ١٢١٦هـ عمم الأمان فى أقاليم مصر **«فكتبت فرمانات ، باللغة العربية ، وأرسلت إلى الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها : الكف عن أذية النصارى واليهود أهل الذمة وعدم التعرض لهما ، وفى ضمنها آيات قرآنية**

وأحاديث نبوية ، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم» ؟! . .

وفى أول جمادى الأولى سنة ١٢١٦هـ قرئت فرمانات عثمانية بإعادة القيادات القبطية ، التى عاونت المحتل إلى سابق وظائفها المالية والكتابية ، والتوصية بمعاملتهم بالحسنى . . ومن هذه القيادات : جرجس الجوهرى . . وواصف . . وملطى . .(٤٩) ؟!

لكن هذه العهود وفرمانات الأمان ، وإن عالجت الكثير من الجراح ، إلا أنها لم تغلق تماما «ثغرة الاختراق» التى فتحتها الغزوة الاستعمارية الحديثة فى جدار «الهوية الإسلامية» لأمتنا . . . فلقد كانت هذه «الثغرة» هى الصفحة الأولى فى كتاب الهيمنة والتبعية والتغريب والإلحاق . . وهو الكتاب الذى تعددت فيه الصفحات ، وتوالت الفصول! . .

● ففى عهد محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) جاء «السانسيمونيون» - أتباع الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى «سان سيمون» (١٦٧٥ - ١٧٥٥م) - وقادوا العديد من إنجازات «التحديث على النمط الغربى» ، وبه غرسوا بذورا لفلسفتهم «الوضعية» ، والمعادية «للمرجعية الدينية» . . وهى بذور أخذت تنمو ، كما وكيفا ، مع تزايد عدد الجاليات الأجنبية وتأثير النفوذ الأجنبى ، وخاصة بعد نجاح «السانسيمونيين» فى الحصول على امتياز شق «قناة السويس» ، وهو من مشاريع «عالميتهم وأمميتهم الغربية» ، التى استهدفوا من ورائه : إقامة «ممر عالمى» ، يمتلكه الغرب ، ويتخذه طريقا لتسويد فلسفته على العالم ؟! . .(٥٠)

● فلما تطورت الأحداث إلى حيث قامت فى أغلب ديار

الإسلام سلطات الاستعمار الغربى المباشر ، بدأت فكرياته ومناهجه ومذاهبه فى السيادة على المؤسسات التى أقامها ، وفى التأثير من خلال هذه المؤسسات . .

وفى خدمة سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، تأسست مدرسة للتغريب ، تكونت ، أساسا ، من مجموعة من القيادات الفكرية المارونية ، التى هاجرت من الشام إلى مصر ، والتى كانت كارهة للإسلام كراهيتها للدولة العثمانية ، لكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بالدعوة إلى رفض المرجعية الإسلامية لمشروع النهضة المنشودة ، فاحترفت التبشير بالنموذج الغربى ونظرياته وعلمانيته ، مرجعا للتقدم والتحديث . . ولقد عملت هذه المجموعة - التى مثلت الامتداد لمشروع «المعلم» يعقوب . . والتنمية لبذور «السانسيمونيين» . . والتطبيق لمناهج ومقاصد مدارس الإرساليات التنصيرية - فى لبنان - . . عملت فى خدمة سلطات الاحتلال الإنجليزى ، أو فى المساحة المرضى عنها من هذه السلطات . . وذلك من خلال مؤسسات ومجلات وصحف ، من مثل «الأهرام» (١٢٩٢هـ ١٨٧٥م) و «المقتطف» (١٢٩٣هـ ١٨٧٦م) و «المقطم» (١٣٠٦هـ ١٨٨٩م) و «الهلال» (١٣٠٩هـ ١٨٩٢م) و«دار المعارف» (١٣٠٧هـ ١٨٩٠م) و «الجامعة» (١٣١٦هـ ١٨٩٩م) . . وكان من أعلام هذا التيار التغريبى : سليم تقلا (١٢٦٥ - ١٣٠٩هـ ١٨٤٩-١٨٩٢م) وبشاره تقلا (١٢٦٨-١٣١٩هـ ١٨٥٢-١٩٠١م) ويعقوب صروف (١٢٦٨-١٣٤٥هـ ١٨٥٢-١٩٢٧م) وفارس نمر (١٢٧٢-١٣٧٠هـ ١٨٥٦-١٩٥١م) وشاهين مكاريوس (١٢٦٩- ١٣٢٨هـ ١٨٥٣ -١٩١٠م) وجرجى زيدان (١٢٧٨- ١٣٣٢هـ ١٨٦١-١٩١٤م) وفرح أنطون

(١٢٩١-١٣٤٠هـ ١٨٧٤-١٩٢٢م) وشبلى شميل (١٢٧٦-١٣٣٥هـ ١٨٦٠-١٩١٧م) ونقولا حداد (١٢٩٥-١٣٧٣هـ ١٨٧٨-١٩٥٤م) . . إلخ . .

وفى موازاة مع هذه الطلائع «الوطنية !» المتغربة ، والمؤسسات الفكرية والثقافية والإعلامية التى أقامتها . . أو أطلت على العقل العربى من خلالها . . كانت هناك إرساليات التنصير ومدارسها وجامعاتها ، التى زحفت على الشرق - وبخاصة لبنان ومصر ، فى القرن التاسع عشر ، والتى توسلت بالتغريب والعلمنة - بل وبالمادية . . وأحياناً بالإلحاد :- لزحزحة الشرق عن مرجعية الإسلام ، وقسره على القبول «بواحدية» الحضارة الغربية دون غيرها من الحضارات . .

لقد كانت مدارس إرساليات التنصير تصوغ «العمالة الحضارية والسياسية» الصريحة ، ليخرج منها الخريجون فيمارسون هذه «العمالة» فى ثياب مموهة ، تحمل عناوين «العلمانية» و «التقدم والتحديث على النمط الغربى» - الذى كان مزدهرا وجذابا فى ذلك التاريخ ! . .

وإذا شئنا نماذج على هذا الدور الذى احترفت القيام به المؤسسات التعليمية لهذه الإرساليات التنصيرية ، فإن فى مراسلات قناصل فرنسا فى بيروت إلى حكومتهم البراهين على احتراف هذه المؤسسات صناعة «العمالة والعملاء» فى بلادنا . .

ففى مراسلات عن المدرسة التى أقاموها فى قرية «عينطورة» اللبنانية ، **يتحدثون عن «ما يحققه توسع هذه المدرسة لنفوذنا ، فإنها تقدم للملك - (ملك فرنسا) - فائدة مباشرة ، فإذا وهبنا**

لها عشر منح ، أو خمس عشرة منحة ، وإذا كان بالإمكان توفير قسم من هذه المنح لبعض أطفال الأسر المارونية ذات الارتباط الوثيق بفرنسا ، فإن حكومة الملك ستخلق بين هذه العائلات ، من خلال نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين ، نقاط اتصال جديدة معها ومع البلد ، ورموزا جديدة وثمينة للاعتراف بفضلها . . . إن حكومة الملك . . تدرى تماما أن خدمتها للمصالح الدينية ، يعنى خدمة الحضارة التى هى فى الوقت نفسه مصالح السياسة الفرنسية» ؟!

وحتى كلية الطب التى أقاموها فى بيروت ، انتقدت مراسلات القناصل اتجاه بعض الأساتذة الذين أرادوا إخضاعها «للفوائد العلمية» . . وقالوا : «إن الغاية الأولى للمؤسِّسَيْن هى أن يجعلا من هذه الكلية فكرة سياسية ومؤسسة دعائية» !

أما المؤسسان اللذان تشير إليهما ، فهما رئيس الوزراء الفرنسى «غمبتا» (١٨٣٨ - ١٨٨٢م) الذى قدم الانذار الشهير للثورة العرابية فى مصر سنة ١٨٨١م . . والكاردينال «لافيجرى» الذى أعلن فى احتفالات فرنسا سنة ١٩٣٠م بمرور قرن على احتلالها الجزائر : «لقد ولّى عهد الهلال وأقبل عهد الصليب ، وإنه سيستمر إلى الأبد . . وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية وحيها الإنجيل» ؟!

وفى رسالة أخرى ، يتحدث القناصل الفرنسيون عن «أن عدد سكان سوريا يبلغ حوالى مليون وأربعمائة ألف نسمة ، بينهم ثلاثمائة ألف مسيحى» - أى خمس عدد السكان - . . ومع ذلك يتحدثون عن السعى لسيطرة الأقلية- الخمس - على الأغلبية -

الأربعة أخماس --! فيكتبون : إن «على هذه الأقلية أن تعيد الحياة للأكثرية التى تعيش بينها ، وذلك بأن تشاد مؤسسة كبيرة ، تحت حماية فرنسا ، تستقبل أطفال هؤلاء المسيحيين وتعلمهم مجانا ، وتدربهم لكى يصبحوا حين انخراطهم فى المجتمع رجالا أخلاقيين وصناعيين ، يتكلمون جميعا اللغة الفرنسية ، ويدينون لفرنسا بما هم عليه من نعمة»! . .

ولقد رأينا ثمرات هذا التخطيط ، الذى تحدثت عنه هذه المراسلات التى كتبت قبل قرن ونصف من الزمان ؟! . وإذا كانت الأهداف قد وضحت وضوح الشمس ، من خلال هذه السطور التى اقتبسناها من هذه المراسلات . . فإن فيها عبارات أبلغ وأفصح فى التعبير عن حقيقة الأهداف . . لقد كتبوا : إننا نريد أن «نجعل من سوريا حليفا أكثر أهميه من مستعمرة »! . . وقالوا : إننا نريد «تأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة»! . . و «إننا حين ننشر فى هذا البلد ، بواسطة اللغة الفرنسية ، التعليم ، والأخلاق ، والفنون المفيدة ، والزراعة ، فإننا سنسيطر على الشعب ، وسيكون لفرنسا هنا فى كل وقت جيش متفان» ! . . بل وقالوا ما هو أكثر - وأفظع - ففى رسالة مؤرخة فى ديسمبر سنة ١٨٤٧م كتب القنصل الفرنسى إلى السفير يقول عن المقاصد النهائية لإرساليات التنصير ومؤسساتها التعليمية : «وهكذا ستنحنى البربرية العربية لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا . .»[٥١] ؟؟! . .

● ولقد كانت الثمرة المرة لهذا المخطط ، مذاهب للفكر الغربى ، تترست جميعها - من الشمولية إلى الليبرالية - لصرف الأمة عن مرجعية الإسلام فى مشروع نهضتها المنشودة . . مع تنوع فى سبل ودرجات القسر على قبول المرجعية الغربية بدلا من مرجعية

الإسلام . . فمن «حداثة» تقيم قطيعة صريحة مع الإسلام وتاريخه وتراثه . . إلى «مركسة» للإسلام ، تجعله مجرد «بناء فوقى» لـ «قوى الإنتاج . . وعلاقات الإنتاج» . . إلى «وضعية» تفرغ الإسلام من محتواه كدين . . إلى علمانية تعزله عن كل ميادين الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى . . والمحصلة النهائية لجميعها هى إلغاء «التعددية» فى المرجعيات الحضارية ، حتى لا تتميز حضارتنا بمرجعيتها الإسلامية المتميزة ! . .

● فمن سلامة موسى (١٣٠٥ - ١٣٧٧هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٨م) - الذى عبر «بصراحة . . عارية أ» عن مشروع «المعلم» يعقوب . . والذى التقط الخيط من المثقفين الموارنة - فدعا إلى الانسلاخ من الشرق والعروبة والإسلام ، وإلى استبدال التفرنج فى كل شىء بهذه الروابط . . فقال : «إنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا . . فهى الرابطة الطبيعية لنا . . وكلما زادت معرفتى بالشرق ، زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى ، وكلما زادت معرفتى بأوربا ، زاد حبى لها ، وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . وهذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرة» ؟! . .[٥٢]

● إلى الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) - الذى سار على درب سلامة موسى - فى هذه القضية بالذات - فادعى أن عقلنا الشرقى ، كان ولا يزال ، يونانى الطابع والمكونات ، وأن الإسلام لم يغير من يونانيته ، كما لم تغير المسيحية من يونانية العقل الأوروبى ، لأن الإسلام والقرآن ليس فيهما أكثر مما فى المسيحية والإنجيل . . «إن كل شىء يدل على

أنه ليس هناك عقل أوروبى يمتاز عن هذا العقل الشرقى الذى يعيش فى مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب . وإنما هو عقل واحد . . مرده إلى عناصر ثلاثة :

١ - حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن .

٢ - وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .

٣ - والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان .

ولو أردنا أن نحلل العقل الإسلامى لما رأيناه ينحل إلى شىء آخر غير هذه العناصر الثلاثة . .

وإذا صح أن المسيحية لم تخرج العقل الأوروبى عن يونانيته ، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته ، والتى كانت متأثرة بالبحر الأبيض المتوسط . . فبين الإسلام والمسيحية تشابه فى التاريخ . . وجوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها . . والقرآن إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل[٥٣] . .» ؟!

وبناء على هذا الحكم - الذى تجاهل تميز الإسلام «بشريعة» لم تعرفها المسيحية - التى تركت ما لقيصر لقيصر . . ووقفت عند مملكة السماء وخلاص الروح - . . وتجاهل التبدل الأوروبى الذى أحدثته الكنيسة فى المسيحية الأولى . . كما تجاهل النزاع فى يونانية العقل الشرقى القديم - بعد أن تجاهل الدكتور طه حسين كل ذلك ، خلص إلى النتيجة التى سعى إليها كل فرقاء هذا التيار ، وهى اعتماد النموذج الغربى فى النهضة والحكم والإدارة والتشريع بدلا من نموذج الإسلام ، وذلك بدعوى «وحدة النموذج» ، لا «التعددية» فيه « . . فالسبيل - (عنده) - واحدة فذة ليس لها تعدد ، وهى : أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم

أندادا ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُحَب منها وما يُكرَه ، وما يُحمد منها وما يُعاب[٥٤] . .» !

وكأنما «واحدية» النموذج الحضارى ، و «وآحادية» المرجعية الحضارية ، ومكونات العقل الحضارى ، هى «القدر» الذى لابد وأن نؤمن به ونسلم له ، خيرا كان أو شرا ، حلوا كان أو مرا ، محبوبا كان أو مكروها ، محمودا كان أم غير محمود ! . .

● إلى مذهب الذين بلغوا على طريق الإلحاق الحضارى حد «مركسة الإسلام» . . فلم يرو فيه إلا «مجرد ثورة» «والقرآن هو كتاب هذه الثورة . . ومصدر المعرفة بنظرية الثورة» وإنجاز الرسول لم يكن إلا «إعادة بناء الشخصية العربية ، وإعادة تخطيط المجتمع العربى» والإيمان بالإسلام لم يكن إلا «الانضمام إلى الثورة» والصحابة كانوا «رفاق الثورة الذين تخلوا عن طبقاتهم وضحوا فى سبيل الثورة . .» أما الفقهاء فكانوا «العلماء بنظرية الثورة . . كما كان القراء طليعة فكرية للثورة ، يمثلون فئة المثقفين الثوريين . . الخبراء بنظرية الثورة . . والأوساط اليسارية . . الممثلين لليسار الثورى[٥٥]» ؟؟! . .

إلى آخر هذه «الفجاجة . . الطفولية» فى التفسير المادى للإسلام ! . .

● إلى «الوضعية - المادية» التى أرادت التسلل إلى إلغاء الإسلام ، بتفريغه من مضمونه الدينى ، ولكن بلغة تراثية ، وتحت مظلة الإسلام . . فدعت - باسم «التراث والتجديد» - إلى «التحرر من سلطة الماضى ، وسلطة الموروث ، فلا سلطان إلا للعقل» وإلى «الانتقال من «الله» إلى «الإنسان الكامل» . . فكل صفات الله هى صفات الإنسان الكامل . . وأسماؤه الحسنى هى آمال

الإنسان . . فالإنسان الكامل أكثر تعبيرا من لفظ «الله» . . وإلى «الانتقال من العقل إلى الطبيعة ، ومن الروح إلى المادة ، ومن الله إلى العالم ، ومن النفس إلى البدن ، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك» . . وإلى «تحويل الوحى إلى أيديولوجية» . . «فالوحى علماني فى جوهره ، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ ، تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور . . والإلحاد هو التجديد . . هو التحول من القول إلى العمل ، ومن النظر إلى السلوك ، ومن الفكر إلى الواقع . . إنه وعى بالحاضر ، ودرء للأخطار . . بل هو المعنى الأصلى للإيمان[٥٦] . .» ؟؟؟!! . .

إلى آخر ما فى هذه الثمرات المرة من «عجائب الأفكار» ، التى نافست فى «العجب» «عجائب المخلوقات» ، مع الفارق بين عجائب العظمة وعجائب الانحطاط ؟! . .

***

وإذا كان البعض يتوهم أن هذه الثمرات المرة لفكر مذاهب التغريب ، إنما هى اختيارات هؤلاء المتغربين ، ولا أثر فيها «لجبر» غربى دفع هؤلاء إلى هذا الطريق . . طريق صب إسلامنا فى قوالب مذاهب الغرب ، ورفض تميزه ، لرفض التعددية فى المرجعيات الحضارية ، وفى سبل الأمم فى النهوض والتقدم . . فإن «فلتات أقلام» من هؤلاء الذين دعوا إلى أن نسير سيرة الغرب فى كل شىء قد فضحت «اختياراتهم» هذه ، عندما اعترفوا بأنها «جبر» غربى ، ألزمهم به الغرب ، حتى بالمعاهدات والمواثيق . . ففى هذه «التبعية» ما يتجاوز «الترغيب . . والترهيب» ليصل إلى «الجبر . . والقسر . . والقهر . . والإكراه» على أن نسير فى هذا الطريق الذى بشر به «المعلم» يعقوب حنا منذ قرنين من الزمان . . . وها هو الدكتور طه حسين – الذى

كتب كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) عقب توقيع مصر لمعاهدتى سنة١٩٣٦م و سنة١٩٣٨م - يقول فى هذا الكتاب : لقد «التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والإدارة والتشريع ؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تُجاز ولا تُذلل ، عقابا نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقى ، وعقابا تقيمها أوروبا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة»[٥٧] ؟؟! . .

وأمام هذا الاعتراف من الدكتور طه حسين «بالالتزام الصريح القاطع أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع» . . هل يبقى مكان للريبة والشك أن القوم إنما يسيرون على طريق «المعلم» يعقوب حنا ، الذى أعلن «الوفد» الذى صحبه إلى مرسيليا ، فى معية جيوش الحملة الفرنسية المنسحبة . . أعلن فى مذكرته إلى بونابرت ذات «الالتزام» ، عندما قالوا : «إن الوفد المصرى ، الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك ، سيُشرّعُ لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا» ؟! . .

فنحن أمام ثمرات مرة ، هى حلقات من «الإلزام . . والالتزام» بالسير سيرة أوروبا «فى الحكم - والإدارة . . والتشريع» . . إلغاء للتعددية ، وقسرا لحضارتنا الإسلامية وأمتها على أن تستبدل النموذج الغربى بالنموذج الإسلامى تأبيدا وتأبيدا للتبعية فى السياسة والأمن والاقتصاد ! . .

***

هكذا صنعت الغــزوة الاســتـعــمــارية ، ولا تزال تصنع ، مع «التعددية» ، التى جعلها الله - سبحانه وتعالى- سنة من سننه وآية من آياته ، التى لا تبديل لها ولا تحويل . .

وهكذا مثلت هذه الغزوة جناية على الأقليات ، التى نعمت بالتعددية فى تاريخنا الحضارى . . فها هى الجراح التى لا سبيل إلى أندمالها مع اليهود ، الذين لم ينعموا بالأمن والعهد إلا فى دار الإسلام ، حتى لقد غدت فلسفتهم جزءاً من الفلسفة الإسلامية ، وتأثرت أجرومية عبريتهم بالأجرومية العربية ، وحاكى عروض شعرهم عروض الشعر العربى . . وعاملهم «الآخرون» كما عاملوا المسلمين . . حتى جاءت الغزوة الغربية فجعلت من نعمة التعددية ، التى نعموا بها ، ثغرة للاختراق ، وسبيلا للإلحاق ، وبابا للجراح المستعصية على الاندمال ! . .

وها هى الأقليات النصرانية ، التى تدين ببقاء عقائدها ولاهوتها وكنائسها ، للتعددية الإسلامية ، يكاد الاختراق الغربى أن يحولها إلى «فيتو» ضد حاكمية الشريعة ، التى ضمنت لها التعددية على مر تاريخنا الحضارى الطويل !! . .

ومع ذلك . . فإن سبيل الكشف عن حقائق الإسلام فى هذا الميدان - وغيره من الميادين - وإدارة الحوار الموضوعى والجاد والصبور مع مختلف الفرقاء . . هو السبيل لاستعادة وحدة العقل العربى والمسلم حول ثوابت المشروع الحضارى الإسلامى . . وسد ثغرات الاختراق أمام الغرب والتغريب .

***

الهوامش:

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) الروم : ٢٢ .

(٤) الحجرات : ١٣٠ .

(٥) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٦) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية .

(٧) المائدة : ٤٨ .

(٨) المائدة : ٦٩ .

(٩) البقرة : ٦٢ .

(١٠) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .

(١١) المائدة : ٦٨ .

(١٢) الشورى : ١٣ .

(١٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

(١٤) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٥ - ٢١ . جمع وتحقيق : د . محمد حميد الله الحيدر آبادى طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

(١٥) آل عمران : ٧٢ .

(١٦) السيوطى (أسباب النزول) ص ٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢هـ . والواحدى النيسابورى (أسباب النزول) ص ٧١ طبعة

القاهرة سنة ١٩٦٨م . والقرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٤ ص ١١١ طبعة دار الكتب المصرية .

(١٧) رواه الإمام أحمد .

(١٨) ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ ١٧ ص ١٤١ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

(١٩) الباقلانى (التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج المعتزلة) ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . تحقيق : محمود محمد الحضيرى ، د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م .

(٢٠) الإمام على (نهج البلاغة) ص ١٤٧ ، ١٤٨ . طبعة دار الشعب . القاهرة .

(٢١) الباقلانى (التمهيد) ص ٢٣٧ .

(٢٢) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٤ . طبعة مكتبة صبيح – القاهرة – بدون تاريخ .

(٢٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، المعروف بابن كيسان (٢٩٩هـ ٩١٢م) – وهو غير «كيسان» مولى على بن أبى طالب ، ورأس الكيسانية – من فرق الشيعة ، التى جعلت الإمامة فى محمد بن الحنفية– .

(٢٤) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ١٥ – ١٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م .

(٢٥) أبو البقاء الكفوى (الكليات) . طبعة دمشق سنة ١٩٨١م . والتهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) . طبعة الهند سنة ١٨٩٢م .

(٢٦) الجرجانى (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

(٢٧) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٣٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة – سنة ١٩٨٣م .

(٢٨) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ٤ – ٩ .

(٢٩) الحاقة : ٥ – ٨ .

(٣٠) فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .

(٣١) البقرة : ٢٥١ .

(٣٢) الحج : ٣٨ – ٤١ .

(٣٣) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٤٥٥ ، ٩٨ ، ٩٩ . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م . وانظر كتابنا (الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ؟) ص ١٥٥ وما بعدها . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م .

(٣٤) المصدر السابق . ص ٣٠ – ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٣ – ١٢٢ – ١٢٤ ، ١٣٥ – ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ – ١٥٤ – ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .

(٣٥) وول ديورانت (قصة الحضارة) الطبعة العربية . القاهرة .

(٣٦) أسامة بن منقذ (الاعتبار) ص ١٣٤ ، ١٣٥ . تحقيق : فيليب حتى . طبعة جامعة برنستون – الولايات المتحدة – سنة ١٩٣٠م .

(٣٧) (الدعوة إلى الإسلام) ص ٢٢٣ .

(٣٨) د . أحمد حسين الصاوى (المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة) ص ١٠٦ . ملحق رقم ٢ نص «منشور بونابرت الأول إلى المصريين» .

(٣٩) الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) جـ ٥ ص ٦٧ . تحقيق : حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، السيد إبراهيم سالم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٤٠) (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ٢٩ .

(٤١) انظر كتابنا (إسرائيل هل هى سامية ؟) ص ٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

(٤٢) (عجائب الآثار) جـ ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٣) المصدر السابق . جـ٥ ص ٤ - وأسماء هؤلاء الأعضاء - ولقد ذكر منهم الجبرتى ثلاثة عشر - هم من العلماء : الشيخ الشرقاوى ، والشيخ الصاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الفيومى - ومن التجار المسلمين : المحروقى ، وأحمد محرم . ومن النصارى : لطف الله المصرى ، ويوسف فرحات ، ومخاييل كحيل ، ورواحة الانكليزى ، وبودنى ، وموسى الكافر الفرنساوى .

(٤٤) المصدر السابق : جـ ٥ ص ١٣٤ .

(٤٥) المصدر السابق : جـ ٥ ص ١٣٦ . وانظر فى أخبار كل ذلك نفس المصدر - وقائع سنة ١٢١٤ هـ ، ١٢١٥هـ .

(٤٦) (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣ - ١٢٥ ملحق رقم ٦ - نص مذكرات مرفوعة لوزير الحربية الإنجليزى ، بواسطة القبطان جوزيف ادموندس ، قائد السفينة التى أبحرت بالمعلم يعقوب والجنود الفرنسيين من مصر إلى مرسيليا .

(٤٧) المرجع السابق . ص ١٢٩ ، ١٣٠ . ملحق رقم ٧ من وثائق «أرشيف» محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية .

(٤٨) المرجع السابق . ص ١٣١ ، ١٣٢ . ملحق رقم ٨ من وثائق أرشيف» محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية – وتاريخ المذكرة هو ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢١٦هـ .

(٤٩) (عجائب الآثار) جـ ٥ ص ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ .

(٥٠) انظر د . محمد طلعت عيسى (أتباع سان سيمون : فلسفتهم الإجتماعية وتطبيقها فى مصر) طبعة القاهرة – الدار القومية – بدون تاريخ . .

(٥١) هذه المراسلات من محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس . . وهى مكتوبة فى سنوات ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٨ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ .

(٥٢) (اليوم والغد) ص ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٥ ، ٧ . طبعة القاهرة سنة١٩٢٨م .

(٥٣) (مستقبل الثقافة فى مصر) جـ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

(٥٤) المرجع السابق . جـ١ ص ٤٥ .

(٥٥) د . عبد الله خورشيد البرى (القرآن وعلومه فى مصر) ص ١٠٨ – ١٣٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

(٥٦) د . حسن حنفى (التراث والتجديد) ص ٥٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٦١ ، ٢٠٣ ، ٦٩ ، ٦٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م .

(٥٧) (مستقبل الثقافة فى مصر) جـ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

المؤلف: دكتور محمد عمارة

١ - سيرة ذاتية.. في نقاط:

● مفكر إسلامي . . ومؤلف . . ومحقق . .

● ولد بريف مصر - بقرية «صروة» مركز «قلين» محافظة «كفر الشيخ» في ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١م ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠هـ - في أسرة ميسورة الحال ، تحترف الزراعة . .

● قبل مولده ، كان والده قد نذر : إذا جاء المولود ذكرا ، أن يسميه محمدا ، وأن يهبه للعلم الديني . .

● حفظ القرآن وجَوَّده بـ «كُتّاب» القرية . . مع تلقي العلوم المدنية الأوَّلية بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإلزامي - . .

● في سنة ١٩٤٥م التحق «بمعهد دسوق الديني الابتدائي» - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٩٤٩ . .

● في المرحلة الابتدائية - النصف الثاني من الأربعينيات - بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية والإسلامية والثقافية . . فشارك في العمل الوطني - قضية استقلال مصر . . والقضية الفلسطينية - بالخطابة في المساجد . . والكتابة - نثرا وشعرا - وكان أول مقال نشرته له صحيفة (مصر الفتاة) - بعنوان «جهاد» عن فلسطين - في إبريل سنة ١٩٤٨م - . . وتطوع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية . . لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين . .

● فى سنة ١٩٤٩م التحق «بمعهد طنطا الأحمدى الثانوى» - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على الثانوية الأزهرية سنة ١٩٥٤م . .

وواصل - فى مرحلة الدراسة الثانوية - اهتماماته السياسية والثقافية . . ونشر شعرا ونثرا فى صحف ومجلات (مصر الفتاة) و(منبر الشرق) و (المصرى) . . وتطوع للتدريب على السلاح - بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - فى سنة ١٩٥١ .

● فى سنة ١٩٥٤م التحق بكلية «دار العلوم» - جامعة القاهرة - . . ومنها تخرج ونال درجة الليسانس فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية . .

وتواصل - فى مرحلة الدراسة الجامعية - نشاطه الوطنى والثقافى . . فشارك فى «المقاومة الشعبية» ، بمنطقة قناة السويس ، إبان مقاومة الغزو الثلاثى لمصر سنة ١٩٥٦م . . ونشر المقالات فى صحيفة (المساء) - المصرية - ومجلة (الآداب) - البيروتية - . . وألف أول كتبه عن (القومية العربية) - والذى طبع سنة ١٩٥٨م - . .

● بعد التخرج من الجامعة أعطى كل وقته - تقريبا - وجميع جهده لمشروعه الفكرى . . فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة العربية الإسلامية الحديثة : رفاعة الطهطاوى . وجمال الدين الأفغانى . . ومحمد عبده . . وعبد الرحمن الكواكبى . . وعلى مبارك . . وقاسم أمين . . وكتب عن أعلام التجديد الإسلامى . . وتيارات الفكر الإسلامى - عبر تاريخنا الحضارى - القديم والحديث والمعاصر - . . وعن السمات المميزة

لحضارتنا الإسلامية . . والمشروع الحضارى الإسلامى . . وحاور العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة . . وحقق عددا من نصوص تراثنا الإسلامى القديم . .

وكجزء من عمله الفكرى حصل - من كلية دار العلوم - فى العلوم الإسلامية - تخصص الفلسفة الإسلامية - على الماجستير سنة ١٩٧٠م بأطروحة عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) . . وعلى الدكتوراة سنة ١٩٧٥م . بأطروحة عن (الإسلام وفلسفة الحكم) . .

● أسهم فى تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة . . وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية فى وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما . . كما أسهم فى تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة - مثل (موسوعة السياسة) و (موسوعة الحضارة العربية) و (موسوعة العلوم السياسية) و(موسوعة الشروق) . . إلخ . .-

● نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية - منها «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية» - بمصر - و «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» - بواشنطون - و «مركز الدراسات الحضارية» - بمصر و «المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» مؤسسة آل البيت - بالأردن - . .

● حصل على عدد من الجوائز والأوسمة . . منها : «جائزة جمعية أصدقاء الكتاب» - بلبنان - سنة ١٩٧٢م . . وجائزة الدولة- التشجيعية - بمصر - سنة ١٩٧٧م . . ووسام العلوم والفنون - من الطبقة الأولى - . . وجائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام - سنة ١٩٩٣م . .

● زادت أعماله الفكرية - تأليفا وتحقيقا على المائة كتاب . . وذلك غير ما نشر له فى المجلات والصحف . .

● الإسم - كاملا - : دكتور/ محمد عمارة مصطفى عمارة .

٣ - ثبت بأعماله الفكرية:

(أ) تأليف:

١ - معالم المنهج الإسلامى .

٢ - الإسلام وفلسفة الحكم .

٣ - الإسلام وأصول الحكم - دراسات ووثائق - .

٤ - معركة الإسلام وأصول الحكم .

٥ - الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين .

٦ - الإسلام بين التنوير والتزوير .

٧ - الإسلام والمستقبل .

٨ - الإسلام وحقوق الإنسان : ضرورات لا حقوق .

٩ - الإسلام والثورة .

١٠ - الإسلام والفنون الجميلة .

١١ - الإسلام والعروبة .

١٢ - إسلامية المعرفة .

١٣ - الدين والدولة .

١٤ - الإسلام وقضايا العصر .

١٥ - الإسلام والوحدة القومية .

١٦ - الإسلام والسلطة الدينية .

١٧ - الإسلام والحرب الدينية .

١٨ - الإسلام والعروبة والعلمانية .

١٩ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية .

٢٠ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية .

٢١ - سقوط الغلو العلمانى .

٢٢ - التفسير الماركسى للإسلام .

٢٣ - هل الإسلام هو الحل ؟ لماذا ؟ وكيف ؟ .

٢٤ - نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام .

٢٥ - أزمة الفكر الإسلامى المعاصر .

٢٦ - الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ؟

٢٧ - الاستقلال الحضارى .

٢٨ - الطريق إلى اليقظة الإسلامية .

٢٩ - تيارات الفكر الإسلامى .

٣٠ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى .

٣١ - العدالة الاجتماعية والأمن الاجتماعى .

٣٢ - الإبداع الفكرى والخصوصية الحضارية .

٣٣ - الأصولية بين الغرب والإسلام .

٣٤ - التيار القومى والإسلام .
٣٥ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية .
٣٦ - المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد .
٣٧ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .
٣٨ - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية .
٣٩ - معارك العرب ضد الغزاة .
٤٠ - العرب والتحدى .
٤١ - مسلمون ثوار .
٤٢ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين .
٤٣ - سلامة موسى : اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية ؟ .
٤٤ - العالم الإسلامى والمتغيرات الدولية .
٤٥ - عالمنا : حضارة ؟ أم حضارات ؟ .
٤٦ - الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين .
٤٧ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .
٤٨ - العلمانية بين الغرب والإسلام .
٤٩ - الفريضة الغائبة : عرض وحوار وتقييم .
٥٠ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية .
٥١ - استراتيجية التنصير فى العالم الإسلامى .
٥٢ - قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية .

٥٣ – إسرائيل : هل هى سامية.؟
٥٤ – ظاهرة القومية فى الحضارة العربية .
٥٥ – رحلة فى عالم الدكتور محمد عمارة .
٥٦ – نظرية الخلافة الإسلامية .
٥٧ – الإسلام والتعددية : الاختلاف والتنوع فى إطار الوحدة .
٥٨ – التعددية : الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية .
٥٩ – الثوابت والمتغيرات فى فكر اليقظة الإسلامية .
٦٠ – الحركات الإسلامية : رؤية نقدية .
٦١ – الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .
٦٢ – النموذج الثقافى .
٦٣ – الانتماء الثقافى .
٦٤ – نقص كتاب الإسلام وأصول الحكم .
٦٥ – الغرب والإسلام .
٦٦ – أبو حيان التوحيدى .
٦٧ – عندما دخلت مصر فى دين الله .
٦٨ – القدس الشريف .
٦٩ – تجديد الدنيا بتجديد الدين .
٧٠ – المنهاج العقلى فى دراسات العربية .
٧١ – الدكتور يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى .

٧٢ – معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام .

٧٣ – أزمة العقل العربى – مناظرة – .

٧٤ – المواجهة بين الإسلام والعلمانية – مناظرة – .

٧٥ – تهافت العلمانية – مناظرة – .

٧٦ – العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب .

٧٧ – الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب .

٧٨ – عمر بن عبد العزيز .

٧٩ – جمال الدين الأفغانى – موقظ الشرق –

٨٠ – جمال الدين الأفغانى : بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض .

٨١ – محمد عبده : تجديد الدنيا بتجديد الدين .

٨٢ – محمد عبده : سيرته وأعماله .

٨٣ – عبد الرحمن الكواكبى .

٨٤ – أبو الأعلى المودودى .

٨٥ – على مبارك .

٨٦ – قاسم أمين .

٨٧ – الشيخ الغزالى : الموقع الفكرى والمعارك الفكرية .

٨٨ – نظرة جديدة إلى التراث .

٨٩ – التراث والمستقبل .

٩٠ – القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب .
٩١ – فجر اليقظة القومية .
٩٢ – العروبة فى العصر الحديث .
٩٣ – الأمة العربية وقضية الوحدة .
٩٤ – ثورة الزنج .
٩٥ – الوعى بالتاريخ وصناعة التاريخ .
٩٦ – الفكر القائد للثورة الإيرانية .
٩٧ – القرآن : نظرة عصرية – بالاشتراك مع آخرين – .
٩٨ – محمد (ﷺ) : نظرة عصرية – بالاشتراك مع آخرين – .
٩٩ – عمر بن الخطاب : نظرة عصرية – بالاشتراك مع آخرين– .
١٠٠ – على بن أبى طالب : نظرة عصرية – بالاشتراك مع آخرين– .
١٠١ – الإسلام والمرأة – بالاشتراك مع آخرين – .
١٠٢ – الحركات الإسلامية : نظرة مستقبلية – بالاشتراك مع آخرين– .
١٠٣ – الإسلام فى عيون غربية – تحت الطبع –
١٠٤ – الحوار : فريضة إسلامية – تحت الطبع –
١٠٥ – معالم المشروع الحضارى – تحت الطبع –

١٠٦ – الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى .

١٠٧ – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده .

١٠٨ – الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى .

١٠٩ – الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى .

١١٠ – الأعمال الكاملة لعلى مبارك .

١١١ – الأعمال الكاملة لقاسم أمين .

١١٢ – رسائل العدل والتوحيد .

١١٣ – كتاب الأموال – لأبى عبيد القاسم بن سلام .

١١٤ – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال – لابن رشد .

١١٥ – رسالة التوحيد – للإمام محمد عبده .

١١٦ – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده .

١١٧ – التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ – لمحمد مختار باشا المصرى .

الفهرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز . .

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- أ . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر



